سيرة كاتب موحدي:

أبو القاسم البلوي الإشبيلي

(القسم الثاني)

د.محمد مفتاح الخُمْسي

(فاس المغرب)

ومن تلامذة البلوي أيضا عمر بن محمد بن أحمد القيسي [1] وهو"خال ابن عبد الملك المراكشي" الذي أثنى عليه وذكر أنه كان أديبا بارع الكتابة، متصفا بحسن الخلق ودماثته، إذ كان منزله مجمع الفضلاء والنبلاء من الناس يغلب عليه طابع الحياء، كثير المواساة للناس، انتفع كثير من النّاس بجاهه وماله، فأكثروا الثناء عليه والتمجيد لأخلاقه وحلمه وعلمه وفضله. وقد أخذ عن البلوي بمدينة مراكش وانتفع بعلمه كثيرا.

ويعد من تلامذته أيضا أحمد بن فرج بن أحمد بن محمد اللخمي [2]، لم يأخذ عن البلوي ببلده إشبيلية وإنما درس عليه في مراكش بعد سنة 650. ولا شك أنه قد كان انتفع بشيخه في علمين أساسيين وهما : الأدب والحديث ؛ إذ تذكر الأخبار أن اللخمي كان قد فاق أقرانه في هذين النوعين من العلم، وأنه كان إلى جانب علمه وثقافته حسن الأخلاق طيب العشرة جميل الصحبة.

ويعتبر أبو الحسن الماجري الكفيف [3] من تلامذة البلوي الذين أخذوا عنه بمراكش؛ وكان حافظا للحديث راويا له، موسوعي الثقافة جمع بين الرواية والدارية، وبين المعقول والمنقول، ألّف في المنطق كتابا سمّاه "أسهل الطرق إلى فهم المنطق" وهو

(1) الذيل والتكملة. 8 / 1 / 235.

(2) الذيل والتكملة. 1 / 1 / 359. نفح الطيب 3 / 282. درة الحجال 1 / 16.

(3) انظر مقالا عنه للدكتور محمد بن شريفة في مجلة المناظرة. ع2. ص 27 - 56.

أول تأليف مغربي في هذا النوع من العلوم [1]. كما ألف الناسخ والمنسوخ في الحديث وغير ذلك من المصنفات التي تدل على غزارة علمه وتنوع ثقافته.

هؤلاء هم تلامذة البلوي الذين تمكنا من معرفتهم والوقوف على تراجمهم في كتب الطبقات. ولا شك أن عددهم يفوق ذلك بكثير، يستفاد ذلك من عبارة ابن عبد الملك التي أوردها ضمن ترجمته والتي قال فيها "وروى عنه جماعة من أصحابنا ومن يتنزل منزلة شيوخنا" [2]. إن العبارة السالفة الذكر تشعرنا بأن الآخذين عن البلوي أكثر من العدد الذي توصلنا إليه بكثير، غير أن اختصار ابن عبد الملك وإيجازه في الحديث عن تلاميذه حجب عنا العديد منها ؛ خاصة إذا علمنا أن الزمن امتد بالبلوي طويلا وأنه عمّر وأسنّ، ولم يبلغه أجله إلا بعد اثنين وثمانين سنة. ولعل تلك المدة الزمنية كانت كافية لكي يتصل بمجلسه وحلقة علمه ودرسه كثيرا من الراغبين في الاستفادة من الشيوخ، يضاف إلى ذلك أنه استقر بمركزين أساسيين من مراكز العلم خلال الحقبة الموحدية وهما : مدينة "إشبيلية" ومدينة "مراكش" حيث كان يقصدهما الطلاّب من كل الجهات للتزود بالعلم والمعارف والأخذ عن الشيوخ.

* **شاعرية البلوي :**

كان البلوي كاتبا بالغا ذاعت شهرته في الأوساط الأدبية بالأندلس والمغرب، غير أنه لم يكن كاتبا فحسب بل كان إلى جانب ذلك شاعرا مشاركا تفتقت شاعريته منذ صغره حيث ذكر تلميذُهُ ابن عبد الملك "أنه نظم في شبيبته قصائد بديعبة وخاطب بها صديقه أبا بكر بن مهيب [3] وعمره لا يتجاوز العشرين. وقد أشاد معاصروه بشاعريته وممارسته للقريض إذ يحدثنا "ابن سعيد المغربي" أنه أثناء لقائه إياه بإشبيلية أنشده قصائد طويلة تدل على طول نفسه وشدة معالجته للشعر وممارسة له، ونبوغه فيه [4]

(1) نفسه.

(2) الذيل والتكملة 1 / 2. 454.

(3) التكملة 2 / 659.

(4) اختصار القدح المعلّى. ص 120.

فاق به بعض أقرانه. كما نجد "ابن عبد الملك" وكان ملازما للبلوي يشيد أيضا بشاعريّته ويذكر أنه استمع لكثير من قصائده وأشعاره في مناسبات متعددة وأغراض متنوّعة؛ كما يذكر أنه كان كثير الارتجال للشعر قوي البديهية، وهاتان الصفتان تدلان على أنّ البلوي كان شاعرا مطبوعا يسلك في قريضه طريقة الشعراء المطبوعين لا يتكلف في قوله للشعر بل يأتيه طوعا. ولعل الذي ساعد البلوي على ذلك ممارسته لقراءة الكتب الأدبية مع صفاء ذهنه وقوة ذاكرته ؛ يضاف إلى كل هذا طبعه الميال إلى الأدب والشعر ؛ وقد كان البلوي يعتد بهذه الصفات كلّها ويفخر بها حيث كان يقول "لو شئت ألا أتكلّم في حاجة تعرض لي مع أحد وأحاوره إلا بكلام منظوم لفعلت غير متكلّف ذلك" [1].

بالرغم من شهادة معاصريه ومن تلاهم بتفوّق البلوي في قول الشعر وبغزارة إنتاجه فيه فإننا لا نتوفر من شعره إلا على نسبه قليلة متفرقة في بعض المصادر التي ترجمت له أو في بعض مقدّمات رسائله التي احتفظ لنا بها هو نفسه في كتابه «العطاء الجزيل » [2]، مما يجعلنا لا نستطيع أن نتمثل شاعريته تمثيلا حقيقيا ويجعلنا أيضا لا نستطيع أن نلم بمختلف جوانب تلك الشاعرية ونصدر حكما نطمئن إليه كل الإطمئنان. ولكننا مع ذلك سنحاول أن نقدّم نظرة موجزة عن شاعريته من خلال النصوص القليلة المتبقية، وإن كنّا نعتقد أن النتف التي سلمت لنا من شعره لا تمثل الصورة الحقيقية لشاعريته، كما أنها لا تصور الوجه الحقيقي للشاعر كما عرفه أصدقاؤه وتلامذته، وكما صوره لنا معاصروه.

ومما لا شك فيه أيضا أن البلوي كان قد نظم قصائد في مختلف الأغراض التقليدية التي عرفها الشعر العربي عبر مسيرته التاريخية الطويلة من مدح وفخر وغزل ورثاء ووصف وإخوانيات ؛ غير أننا لا نملك من شعره اليوم سوى أبيات من قصائد المدح ،

(1) الذيل والتكملة. 1 / 2. 457.

(2) العطاء الجزيل.

وبعض قصائد الرثاء، أضف إلى ذلك مقطعات شعرية عبّر فيها عن ذاته وعن المحن التي اعترته كما عبّر من خلالها عن القلق والاضطراب الذي انتابه في أخريات حياته.

ولكي تتضح الصورة الحقيقية لشاعرية البلوي فإننا سنتحدث عن الأغراض التي أبدع فيها وهي :

* **المدح :**

يعد المدح الغرض الرئيسي في الشعر العربي لأنه مصدر عيش الشعراء وباب رزقهم، ولهذا السبب قيل إن ثلثي الشعر العربي مدح، وعلى أساسه أقام بعض النقاد نظريتهم في بناء القصيدة العربية. ولم يكن المدح بابا للرزق فحسب بل كان أيضا باب للشهرة والذيوع إذ لم يستطع كثير من الشعراء أن يشتهروا إلا بعد مدحهم للملوك أو الولاة والأمراء وعِلّيّة القوم، بل إنّ فحولة الشاعر لا تكتمل في نظر كثير من النقاد إلا إذا طرق هذا الباب وإن لم يدفعه دافع التكسب. ومن ثم كان لزاما على البلوي أن يشارك الشّعراء في هذا الغرض وأن يمدح من يستحق المدح من الخلفاء والولاة والأمراء أو من الأصدقاء الذين كانوا يبادلونه الود والصداقة وقد كان لديه منهم عدد كثير.

ويبدو أن أول قصيدة مدحية قالها البلوي، وذاعت شهرتها بين الناس، هي تلك التي نظمها في مدح أبي العلاء إدريس حينما كان واليا بإشبيلية سنة 623. ويظهر أنها قد نالت إعجابه فوقع اختياره عليها من بين القصائد التي قدمت له في تهنئته بعد تغلّبه على أبي عبد الله البياسي الثائر ووصول البشائر بخبر قتله [1]. وعلى الرغم من شهرة القصيدة وحفظ الناس لها وتداولها بين طبقات المجتمع الإشبيلي فإننا لا نملك منها سوى شطر واحد من مطلعها يقول فيه البلوي :

"ياهبّة السّعد هزّي قبّة الوادي" [2]

(1) البيان المغرب. ص 271.

(2) اختصار القدح المعلى. ص 120.

أما القصيدة الثانية فهي التي نطهما في مدح الخليفة المعتضد بالله الملقب بالسعيد[1] وأنشده إياها أثناء وصول وفد إشبيلية ومثوله بين يديه لتهنئتة بصيرورة الأمر إليه بعد وفاة أخيه الرشيد. ويذكر ابن عبد الملك، أن البلوي كان قد أنشد الخليفة قصيدتين بديعتين وخطبتين رائعتين، ولم يحتفظ لنا الزمان من كل ذلك إلاّ بأبيات قليلة من قصيدة مدحية واحدة اختار منها ابن عبد الملك مايناسب ذوقه.

يفتتح البلوي القصيدة بزفّ البشرى إلى الناس في كل البقاع والأصقاع وهي بشرى ستعقبها بشائر أخرى، لأن الخليفة الجديد سيهدي البشر إلى طريق الحق والخير بفضائله وخصاله الحميدة ولاشك أن الرعية ستنام في إمارته قريرة العين لأنه سيكون الساهر الأمين على شؤونها العامة والخاصة، كما أنه سيكون المؤنس لها في وحشتها وغربتها فهو قمر قد أشرق على رعيته بعد وفاة الرشيد [2] كما يشرق القمر الحقيقي في ليل مظلم :

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ بُشْرَى بَعْدَهَا بِشَرُ ... خَلِيفَةٌ بَشَرٌ يُهْدَى بِهِ اَلبَشَرُ
نَامَتْ رَعِيَّتُهُ فِي حُجْرِ إِمْرَتِهِ ... وَفِي رِعَايَتِهَا مِنْ شَأْنِهِ اَلسَهَرُ
وَأَشْرَقَ اَلأُنْسُ مِنْ بَعْدِ اَلرَّشِيدِ بِهِ ... كَأَنَّمَا هُوَ فِي لَيْلِ الأَسَى قَمَرُ [3]

ثم يصف فضائل الخليفة الجديد وهي كثيرة تفرقت لدى غيره واجتمعت فيه، فهي تشبه فضائل الخلفاء الراشدين. فالخليفة في صدقه كأبي بكر الصديق دلت على ذلك سريرته وأخبر عنه طبعه ومخبره، كما أنه سيكون في فتوحاته للمعاقل والحصون كعمر بن الخطاب، وستتوالى تلك الفتوحات تترى وستأتي متتابعة. وهو في حيائه البادي على وجهه ومحياه كعثمان بن عفان، وهو في شجاعته وبطولته كعلي بن طالب إذ يعد سيف الله الذي يشقى به كل من عاند أو خالف دعودته سواء من كان من قومه أو من كان من غيرهم. وهو وحده يغني عن جيشه في معاركه، فلا يبالي أثناء دخوله

---

(1) البيان المغرب. ص 359.

(2) الذيل والتكملة 1 / 2. 457. الحلل الموشيّة ص 167.

(3) نفسه.

للمعارك أقل جيش أعدائه أم كثر. وهو شمس إذا أرسلت أشعة نورها على الأرض أغنت الناس عن نور النجوم الصغيرة :

فَضَائِلُ اَلْخُلَفَاءِ اَلرَّاشِدِينَ لَه ... مجموعةٌ فيه من أياتها اَلكبر
كأنما نَحَلَ اَلصديق شيمته ... في اَلصدقِ فَالخُبْرُ صدقٌ منهُ واَلخَبَرُ
تَأْتِي اَلفُتوحاتُ في أيامه نَسَقًا ... كَأَنَّمَا هو في أيَّامِهِ عُمَرُ
وَمِنْ فَضَائِلِ عثمانُ الحياء لَهُ ... على مُحَيَّاهُ من أنواره أَثَرُ
لَهُ اَلْوَصِيُّ [1] سَمِيًّا وَهُوَ يُشْبِهُهُ ... في سَيْفِهِ فبه يَشْقَى اَلأُلَى كَفَروا
سيفٌ غَدَا فِي يَدِ اَلقَهَّارِ قَائِمُهُ ... لاَ يَكْهَمُ اَلسيف أَمْضَتْ حَدَّهُ اَلْقَدَرُ
يُغْنِي اسمُهُ إِنْ نَضَاهُ عن عساكره ... فلا يبالي أَقَلَّ اَلجَيْشُ أَمْ كَثُرُوا
كَالشَّمْسِ تُغْنِي إِذَا ذَرَتْ أَشِعَّتُهَا ... عَنِ المصابيحِ حيثُ النُّورُ مُنْتَشِرُ [2]

لا يكتفي البلوي بمدح فضائل الخليفة السعيد فحسب بل يبالغ في مدحه ويعتبر المدائح التي تلقى فيه من القصائد التي يقبلها الناس بصدر رحب، حيث يكررونها حفظا ودراسة كما يكررون ويحفظون سور القرآن الكريم، لأنهم يعتقدون أن تلك المدائح تكشف عن محاسن الخليفة وبذلك تبدو صورته لديهم كعروسةٍ باهيةِ الحسن رائعة الجمال ثم يتخيلون أن الأئمة الذين سبقوه قد حضروا في شخصه وذلك بإحيائه لسنّتهم وسيره على سيرتهم ونهجهم :

تُتْلَى مدائحُهُ والمؤمنونَ بها ... كأنما هي إذ تُتْلَى لَهُمْ سُوَرُ
كأنما هي إذ تُجْلِي مَحَاسِنَهُ ... عَرَائِسُ اَلحسن قد راقت لها صُوَرَ
لمَّا رأيناهُ خِلْنَا عند بَهْجَتِهِ ... أَنَّ اَلائِمَّةَ من آبائِهِ حَضَرُوا [3]

ثم يتطرّق البلوي بعد ذلك في قصيدته إلى تقديم فروض الولاء والطاعة من قبل وفد إشبيلية الذي جاء مبايعا ومهنئا للخليفة الجديد بتولّيه للسلطة، فيذكر أن هذا الوفد قد

(1) الوصيّ : يقصد به علي بن أبي طالب.

(2) الإعلام بمن حلّ بمراكش وأغمات من الأعلام. ج 2 / 181.

(3) الذيل والتكملة 1 / 2. 458.

جاء مستجيرا بالخليفة مستعصما به لائذا إليه بعدما مال النصارى على المسلمين بالأندلس في عقر دارهم، وأحاطوا بهم من كل جانب فأصبحوا قليلي العدد إلا أنهم بفضل إمارة الخليفة الجديد ونصرته لهم سيصبحون كثيري العدد إذ الخليفة سيعزز جانبهم ويرفع من معنوياتهم، ولذلك فهم متيقنون بأن النصر سيكون حليفهم لأن إرادة الخليفة مستمدة من إرادة الله ومن تكون تلك صفته لا شك أنه إن أمر بشيء نفّذ أو طمح إلى غاية نالها :

وَافَاكُم وَفْدُ حمصٍ المستجيرُ بكم ... وقد أعزوا بكم وعدًا وَقَدْ نُصِرُوا
صَالَ العدو عليهم في جوارهم ... حتى لَقَلُّوا فمذ أَمَرْتُم كَثُرُوا
وَأيْقَنُوا أن نصر الله نصركم ... فالفتح مُرتقَبٌ والنَّصر مُنْتَظَرُ
إرادةُ الله تمضي ما تريد إذا ... أمرت فالفلك الدوَّار مؤتمر [1]

ويحتفل البلوي في قصيدته بالإطراء المتزايد ويخلع على الخليفة الجديد صفات الهدى والدين، باعتباره محيي رسمه، وباعتبار أنه يسير على نهج مؤسس الدعوة الموحدية المهدي بن تومرت [2] ويهنيء الشريعة الإسلامية التي أصبح الخليفة حارسها الأمين وروحها وسامعها، فبأمره غدا دعاةُ الحق والدين منتصرين على الكفار لأنه يرميهم بشواظ من نار، وذلك لأنه معتضد ومؤازر من قبل الله مستنصر به، فهو كالسهم يرمي به اللّه على أعداء دينه، وطائفة التوحيد وجماعتهم هي القوس والوتر بيده :

يَهْنِي الشَّرِيعَةَ أنْ أصْبَحْتَ كَافِلَهَا ... فَالرُّوحُ أَنْتَ لَهَا وَالسَّمْعُ وَالبَصَرُ
بِأَمْرِكُمْ حَاطَ سِرْبُ الدِّينِ نَاصِرُهُ ... تُحْيِي العِبَادَ وَتَحْمِيهِم وَتَنْتَصِرُ
مَعْنَى الهُدَى عصبةُ التوحيد ظاهره ... وأنت لاَ شَكَّ مَعْنَاهَا إِذَا اعْتَبَرُوا
رَمَى بِكَ اللَّهُ أهلَ الكُفر تَسْحَقُهُمْ ... وَأَنْتَ مُعْتَضِدٌ بِاللَّهِ مُنْتَصِرُ
فَاللَّهُ رَامٍ وَأَنْتَ السَّهْمُ فِي يَدِهِ ... وَالقَوْسُ طائفةُ التَّوْحِيدِ وَالوَتَرُ [3]

---

(1) الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام. 2 / 181 - 182.

(2) أخبار المهدي بن تومرت للبيدق. ص 11 - 34.

(3) الذيل والتكملة 1 / 2. 458 - 459.

والقصيدة كما يبدو محكمة السبك، جيدة الأسلوب والتعبير، قوية المعاني، واضحة الدلالة، وهي من القصائد الغير الطوال التي دبّجها البلوي في المدح. ولكن الملاحظة التي تتبادر إلى ذهن القارئ حينما يتمعّن في معانيها هي أن البلوي قد خلع على الخليفة صفات مبالغ فيها لا تخلع على سائر البشر. ولا شك أن الموقف كان يستدعي ذلك وأنّ المناسبة دفعت به إلى إبراز ما يكنه أهل إشبيلية - وضمنهم الشاعر- من محبة وولاء للخليفة الجديد وما يضمرونه للدّعوة الموحدية من إخلاص وما يؤملونه فيها وفي الخليفة ذاته من نصرة وخلاص، خاصّة وأنهم كانوا يعيشون في قلق دائم واضطراب شديد بسبب الهجومات المتكررة التي كانت تحوط بهم من قبل جيرانهم وبسبب الصراعات السياسية والحربية التي كانت تشهدها الأندلس ؛ كما أن الشاعر البلوي أراد من خلال هذه القصيدة أن يظهر قدرته الفنية أمام تلك الجموع المحتشدة التي أتت مهنئة الخليفة من كل الأصقاع والبقاع ؛ ويبدو أن الشاعر كان صادقا في عاطفته تجاه الموحدين ودعوتهم وأنه لم يضف عليهم من الصفات سوى تلك التي عهدنا أغلب الموالين لهم يضفونها عليهم ؛ وهي وإن بدت لنا حاليا مبالغا فيها فإنّها باعتبار العصر عادية.

لم يمدح البلوي الولاة والأمراء والخلفاء فحسب بل مدح أصدقاءه ؛ ولم نعثر له في مدح أصدقائه إلا على أبيات قالها في أبي مروان الباجي [1] الذي كان قد وفد على إشبيلية من مدينة مراكش لحضور جنازة أخيه، وقد وردت هذه الأبيات ضمن افتتاحية قصيدة بعثها إليه البلوي يعزّيه في وفاة أخيه الأكبر الخطيب أبي عبد الله وذلك سنة 606هـ [2].

وفي هذه الأبيات يذكر البلوي أن قدوم صديقه إلى إشبيلية قد أعاد الأنس إلى النفوس التي كات قد اشتاقت لرؤيته خاصة نفوس الذين تربطهم به رابطة القرابة أو

---

(1) الذيل والتكملة. 5 / 2. ص 687.

(2) نفسه. 5 / 2. ص 686

رابطة الصّداقة ؛ كما يذكر أن إشبيلية نفسها أضحت مشـرقة النواحـي بطلوعـه عليهـا، وأنّ أرضها وترابها قد فاحت مسكًا وعطرا برؤيتـه والتملّـي بطلعتـه، وأن الزهـور قد أينعت على الرغم من أن الفصل الذي كان قد ورد فيه هو فصل الصيف فكأنه بحلوله قد حلّ معه فصل الربيع :

قُـدُومُـكَ أَيُّـهَـا الْـحَـبْـرُ الْـرَّفِـيـعُ ... أَعَـادَ الأُنْـسَ فَـابْـتَـهَـجَ الْـجَـمِـيـعُ
وَأَضْـحَـتْ حِـمْـصُ مُـشْـرِقَةَ الْـنَّـوَاحِي ... بِـوَجْـهِـك حِـيـنَ حَـانَ لَـهُ طُـلُـوعُ
وَفَـاحَـتْ أَرْضُـهَـا بِـشَـذَاكَ حَـتَّـى ... كَـأَنَّ تُـرَابَـهَـا مِـسْـكٌ يَـضُـوعُ
وَأَيْـنَـعَـتِ الأَزَاهِـرُ وَهْـوَ صَـيْـفٌ ... كَـأَنَّـكَ إِذْ أَتَـيْـتَ أَتَـى الْـرَّبِـيـعُ [1]

وبعد هذه الافتتاحية التقليدية ينتقل للتعبير عما انتابه مـن سرور وفرح، ثـم يضفي عليه بعض الصفات التي كانت تميزه عن غيره من الشخصيات في عصره ؛ ومن هذه الصفات : الأخلاق الحسنة، الدين المتين، الحسب والنسب، الثقافة وقدرة التحصيل.

ويبدو من خلال الصفات التي مدح بها البلوي صديقه أنها تـرد في الشعر العربي عامة، فهي صفات تقليدية لا جديد فيها، ولكن الشـاعر كـان صادقا فيها غير مجانب للحـق والحقيقـة. يـؤدي ذلـك أن أغلـب الذيـن ترجموا للبـاجي يحلّونـه بنفس الصفـات ويضفون عليه نفس الخصال :

خُـلِـقْـتَ لِـمِـلْـكِ أَفْـئِـدَةِ الْـبَـرَايَـا ... فَـأَنْـتَ لِـكُـلِّ ذِي أَمَـلٍ شَـفِـيـعُ
لَـكَ الْـذِّكْـرُ الْـجَـمِـيـلُ بِـكُـلِّ أَرْضٍ ... بِـأَخْـلَاقٍ لَـهَـا حُـسْـنٌ بَـدِيـعُ
لَكَ الْـدِّيـنُ الْـمَـتِـيـنُ لَـكَ الْـمَـعَـالِـي ... لَكَ الْـتَّـحْـصِـيـلُ وَالْـحَـسَـبُ الْـرَّفِـيـعُ
وَمَـا جَـارَاكَ فِـي شِـأْوٍ خَـطِـيـبٌ ... فَـإِنَّـكَ وَحْـدَكَ الْـفَـرْدُ الْـطَّـلِـيـعُ [2]

* الرثـاء :

يعتبر الرثاء من الأغراض التي طرقها البلوي وبرّز فيها وليس بين أيدينـا قصـائد مستقلة في هذا الغرض، بل كل ما وصلنا منه هو عبارة عن مقطعات وقصـائد وردت

---

(1) العطاء الجزيل.

(2) نفسه.

ضمن التعزية المبثوثة في كتاب «العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل» [1].

ولم يرث البلوي أحد من أقربائه أو ذويه بل رثى أصدقاءه كما رثى الولاة والأمراء الذين ارتبطت حياته بهم وخاصة صديقه ووليّه الحميم إبراهيم المعروف بالأحول[2] الذي تأثر البلوي بوفاته، وخلّد ذكره بقصائد رثائية رائعة معبرة، تدل على تأثره العميق لوفاته وحزنه الشديد على مفارقته. وقبل أن نحدد مضامين هذا الشعر فإننا نشير إلى أن القصائد التي وصلتنا في هذا الغرض هي التالية :

القصائد	الأفراد
1	في رثاء صديقه أبي عبد الله الباجي وتعزية أخيه.
1	في رثاء السيد أبي محمد الموحدي وتعزية والده أبي موسى.
3	قصائد في رثاء ولي نعمته أبي إسحاق إبراهيم الموحّدي والي إشبيليّة.

أما القصيدة الأولى فقد وردت ضمن رسالة تعزية بعثها البلوي لأبي مروان الباجي الذي ورد لحضور جنازة أخيه من مدينة مراكش. أما المرثي فهو أبو عبد الله محمد ابن أبي عمر اللّخمي الإشبيلي، كان متصفا بالوقار والتدين والانقباض ؛ ولي الخطبة والقضاء ببلده إشبيلية، وتوفي بها سنة 606 هـ كما يقول ابن الآبار في التكملة [3].

وقد افتتح البلوي قصيدته في رثائه بأبيات مدح بها أخاه باعتباره كان قد خلفه، وباعتبار أن البلوي بعث إليه بهذه الأبيات معزّيا له ومسرّيا عن همه وحزنه. ثم تخلص البلوي بعد ذلك إلى التعبير عن فداحة المصاب بفقد من فقد مذكّرا بما دهى الناس من حزن عليه، فأضحى شمل سرورهم متصدّعا بعد أن كان مجتمعا. يقول معبرا عن ذلك :

(1) نفسه.

(2) البيان المغرب ص : 266.

(3) التكملة. 2 / 637.

عَــلَــى أَنَّ اَلْـمُـصَـابَ بِـلاَ امْـتِـرَاءِ ... بِـفَـقْـدِ أَخِـيـكُـمْ جَـلَـلٌ شَـنِـيـعُ
وَأَضْـحَـى اَلـنَّـاسُ يَـوْمَـئِـذٍ جَـمِـيـعًـا ... وَشَـمْـلُ سُـرُورِهِـمْ بَـدَدٌ صَـدِيـعُ [(1)]

ثم انتقل البلوي إلى تعداد مناقب المرثي، مركزا على ما كان يتصف به من تواضع، وخشوع، وتدين، وتقوى، وهي صفات المتّقين الذين يخشون الله في السرّ والعلن، وتلك كانت مزايا الباجي بحق :

وَنَـادَى اَلـدِّيـنُ وَا لَـهْـفِـي عَـلَـيْـهِ ... أَرَى اَلـتَّـقْـوَى خَـلَـتْ مِـنْـهَـا اَلـرُّبُـوعُ
مَـضَـى اَلْـبَـاجِـي فَـنَـادَى أَهْـلُ حِـمْـصٍ ... لَـقَـدْ ذَهَـبَ اَلـتَّـوَاضُـعُ وَاَلْـخُـشُـوعُ [(2)]

ويعقب تلك الأبيات أبيات أخرى حكميّة، أبرز فيها الشاعر أن الله قد هدى الإنسان للتقوى، ولكنه غافل يرى الناس أمام أعينه يذهبون صباح مساء وهو مع ذلك لا يرعوي عن غيّه وضلاله :

هَـدَانَـا اَلـلَّـهُ لِـلْـتَّـقْـوَى وَإِنَّـا ... لَـنَـا فِـي حَـوْضِ غَـفْـلَـتِـنَـا كُـرُوعُ
وَيُـوقِـظُـنَـا اَلْـحِـمَـامُ بِـكُـلِّ حِـيـنٍ ... وَنَـحْـنُ لِـطُـولِ غَفْلَتِنَا هُـجُـوعُ [(3)]

ويختم قصيدته بالتفجع على صديقه، وذكر مكانته من نفسه، داعيا لأخيه الأكبر بطول العمر :

فَـكَـمْ أَبْـكِـي عَـلَـيْـهِ بِـكُـلِّ دَمْـعٍ ... وَلاَ تُـجْـدِي عَـلَـى مَـيْـتٍ دُمُـوعُ
وَمَـدَّ اَلـلَّـهُ عُـمْـرَكَ فِـي سُـرُورٍ ... وَدَامَ لِـعِـزِّكَ اَلْـمَـجْـدُ الْـمَـنِـيـعُ
فَـمَـا فُـقِـدَتْ مَـعَـانٍ أَنْـتَ فِـيـنَـا ... خَـلِـيـفَـتُـهَـا وَدَاعِـيـهَـا اَلـسَّـمِـيـعُ [(4)]

ويظهر من خلال ما تبقى من هذه القصيدة الرثائية، التي مزج فيها البلوي المدح بالرثاء، أنها جيدة السّبك حسنة النظم سهلة الألفاظ بديعة التركيب.

---

(1) العطاء الجزيل.
(2) العطاء الجزيل.
(3) العطاء الجزيل.
(4) العطاء الجزيل.

أما القصيدة الثانية ؛ فهي عبارة عن قطعة صغيرة بعث بها البلوي إلى السيد أبي موسى الموحدي يعزيه في ابنه أبي محمد، وليس فيها من الرثاء سوى بيت واحد، أما باقي الأبيات فهي عبارة عن مدح لأبي موسى. وقد ركز البلوي في بيته المعنيّ على بعض صفات المرثي، فذكر علمه وفضله وديانته، ثم دعا لوالده بالبقاء وطول العمر :

يا أيها السيدُ الأعلى الذي شُهِرَتْ ... منهُ الدِّيَانة في أقصى قُرَى الصّين
ماذا يقول المُعَزِّي وهو مُقْتَبِسٌ ... مِنْ نُورِ عِلْمِكَ يَا ذَا الفضْلِ وَالدِّين
مَا مَاتَ مَنْ أَنْتُمُ البَاقُونَ ... بَعْدَهُمْ، وَسَائِرُ السَّادَاتِ الغُرِّ المَيَامين (1)

الملاحظ في هذه القطعة وفي غيرها من قصائد الرثاء، أن البلوي يركز دائما على المعزّى به مواسيا له ومعبرا عن أسفه وحزنه، بينما لا يتحدث عن المعزّى إلا قليلا.

أما القصائد الأخرى فهي التي رثى بها والي إشبيلية الذي توفي سنة 612 هـ، وتعتبر من أجود ما قاله البلوي في هذا الغرض. ولعل العلاقات التي كانت تربطه بأبي إسحاق هي التي جعلته يبدع في نظمه ؛ فهي علاقة متميزة إذ استكتبه الوالي المذكور مدة إقامته بإشبيلية، وساعده ماديا وأدبيا على تأليف كتابه «العطاء الجزيل» حيث أمدّه بجملة من الرسائل والذخائر التي كانت بحوزته ودعاه إلى إدراجها في كتابه. كل ذلك دفع بالبلوي إلى أن يتذكر ما أسدى له صاحبه من خير ومعروف، وأن يحزن لفقده ويتأسف لموته وأنْ يخلد ذكراه بمراثيه.

وقد حدد البلوي تاريخ هذه القصائد الثلاث ؛ فذكر أنه نظم الأولى في اليوم الثالث من دفن سيده وهو يوم السبت 28 شعبان 612هـ. والثانية في اليوم السابع من دفنه وهو يوم الإربعاء ؛ وأما الثالثة فقد نظمها في اليوم الثالث عشر من دفنه وذلك يوم وصول ابن الفقيد من بطليوس (2).

---

(1) العطاء الجزيل.

(2) العطاء الجزيل.

والبلوي يستهل القصيدة الأولى بإبراز حزنه العميق على وفاة من كان له سندا في حياته، معبرا عما اعتراه من ألم ممضّ واصفا هول المصاب وفداحته ؛ ومذكرا بِمَنْ حزن النّاس تفجعا لموته ومن كادت الأرض تتزلزل حسرة على فقده ؛ يقول في هذا الصدد :

سُلِبَ اَلعَزَاءُ فَكُلُّنَا محزونُ　　خطبٌ تهون له آلخطوبُ الجُونُ
تَبْكِي اَلسَّمَا وَاَلأَرْضُ فيه تفجعًا　　ويبيتُ يشكوهُ التُّقَى وَاَلدِّينُ
سَلْ بِالْبَسِيطَةِ هَلْ تَمِيدُ بأَهْلِهَا　　تُخْبِرْكَ منها سَهْلَةٌ وَحُزُونُ [1]

ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى تعداد مناقب الميت ؛ فيذكر بلاغته وفصاحته التي كانت تقرع الأسماع، وقراءته للحديث والسيرة النبوية التي كان يحيي بها الفروض الدينية. كما يذكر إحسانه ومعروفه، ونواله الذي كان يسحّ به على الناس، لا فرق عنده في ذلك بين قويّ أو ضعيف :

أين التهلّلُ في المجالسِ منكُمُ　　يُبديه وجهٌ واضحٌ وجبينُ
أين القراءةُ في مَقامك سيرةٌ　　يَحيى بها المَفروضُ والمسنون
أين الطعامُ تَعُدُّهُ لِجماعةٍ　　فيه لها الإحسانُ والتحسين
مَن لِلنوال يَسحّ فينا غيثُه　　حَتَى لَيستغني به المسكينُ [2]

ويختم القصيدة بالدعاء لقبره الميمون معبّرا عن التقصير في التعبير مشيرا إلى أن لسانه قد أخرس، فلا يكاد يبين من شدة الحزن وعمق الأسى :

مولاَي هذي نفثةٌ ما قلتُها　　إلاَ وذِهْنِي بالأَسَى مَجْنُونُ
عُذْرِي يَلُوحُ على تَبَلّدِ خَاطري　　خَرسُ اللسانُ فلا يكاد يُبين
يا قبرَ سيِّدنا الكريم مَزارُه　　صلّى الإلاه عليك فهو مُعين [3]

(1) العطاء الجزيل.
(2) العطاء الجزيل .
(3) نفسه.

أما القصيدة الثانية التي أنشدها لنفسه-كما يقول- ودمعه يفيض فيضا[1]؛ فقد افتتحها بدعوة الناس إلى البكاء على الهمام الذي مضى ومطالبتهم بتحيّة ضريحه اهتماما به وحبا له، معبرا عن حزنه العميق الذي فجّر دموعه وفطر قلبه وحرم النوم عن عينيه :

قِفوا لنبكِ من ذِكْرِ الهُمَام ونُور الفضل في أعلى الشَّمَامِ
قِفوا حَيُّوا الضريحَ معي اهتماما فقد أعيى السموُّ على غرامي
أسيّدَنا فُجعنا فيك طرّا بسلطان الأسى حِلفِ احتكام
دموع العين منًّا في انتثار وحزنُ القلب مِنًّا في انفِصَام
ومن عَجَبٍ غريقٌ في بِحار ويشكُو باحتدام واضْطِرَام
سَطا سهمُ الرزيّة في قلوبٍ هي الأهدافُ والأقدارُ رَام
فيا عيني وفي العنين سُهْد حَرام بعدَه طعمُ المَنَام (2)

ثم ينتقل بعد ذلك إلى تقديم السلام على قبره ؛ معددا مناقبه وخصاله التي تميز بها، وهي مناقب دينيه ودنيوية :

المناقب الدينية
الصلاة: قيام الليل – الصلوات المفروضة
الصوم
التقوى: الإقبال على الحلال – تجنب الحرام

المناقب الدنوية
الكرم
الاهتمام بالناس
الرأفة والإحسان

ويختم قصيدته بأبيات في الحكمة وجّه فيها نداء عاما بوجوب الاتعاظ بالموت التي هي مآل كل حي والاستعداد لها بعين بصيرة ونفس مطمئنة، يقول في هذا الصدد :

أسَادتَنَا يُخُصُّكُمُ نِدَائِي وَإنْ نَادَيْتُ عَامًّا لِلأَنَام
هِيَ الدُّنْيَا وليست دارَ خُلد وَعُمْرُ المَرء فيها لِانْصِرَام
فَطُوبَى لِلأُلَى نَظَرُوا بِعيْنِ الـ ـبَصِيرَةِ فاستعدُّوا لِلْحِمَام (3)

---

(1) نفسه.

(2) نفسه.

(3) العطاء الجزيل.

ويظهر من خلال القصيدة أن البلوي كان وفيا لسيده إبراهيم وفاء لاحدّ له لأنه كان ملاذه الذي يلوذ إليه وملجؤه الذي يأوي إليه، فكان لا يعتصم بأحد -بعد الله- سواه. ذلك ما عبر عنه في القصيدة ذاتها حينما قال :

وَيَا مَنْ كَانَ لِي ظِلاً وَعِزًّا ... فَكَانَ بِهِ وَبِاللّه اعتصَامِي [1]

أما القصيدة الثالثة فقد نظمها البلوي يوم وصول ولد إبراهيم من بطليوس، بعد أن مرت على وفاة والده ثلاثة عشر يوما. وقد افتتح البلوي قصيدته بنداء المثنى على عادة الشعراء القدامى من الجاهليين وغيرهم. وهو نداء تقليدي يطلب فيه الشاعر من صاحبيه أن يمرّا على قبر المرثي حتى يقضي بانهمار دموعه، ما عليه من حقوق الأكابر الذين حوتهم أرض إشبيلية، كما يود منهما أن يساعداه على حزنه الذي ألمّ به بتخفيفهم من وطأته. وإن لم يتمكنا من ذلك فسينتصر بدموعه التي ستكون له خير نصير على ذلك. والشاعر من شدة الحزن والأسى قد نفذ صبره، فبدا له أن القصر قد غدا خاليا مقفرا وأنه رسم داثر، وذلك عندما سأله عن صاحبه فأخبره بأنه تبدل من سكنى القصور بسكنى القبور :

خَلِيلَيَّ عُوجَا سَاعَةً بالمقابر ... يقضي بها دَمْعِي حُقُوقَ الأَكَابِرِ
خليليَّ إن لم تُسْعِدَانِي عَلَى الأسَى ... فَحَسْبِيَ دمعي فهو في الحزن ناصري
أ سَيِّدَنَا غُيِّبْتَ عَنِّي فِي الثَّرَى ... فمَن لي بِقلبٍ بعد فَقْدِكَ صابرِ
كَفَى حزنًا أنّي أرى القصر خاليًا ... كأنِّي في الرُّسُومِ الدَّوَاثِرِ
أُسَائِلُ فيه عَنْكُمُ فَيُقَالُ لِي ... تبَدلَ بعد القصر سُكْنَى المَقَابِرِ [2]

ثم يتطرق الشاعر إلى الحديث عن الزمان الذي قضاه بجانب سيده إبراهيم هادئ البال مسرورا يجتني من محاسنه وكرم أياديه فتغدو أيامه كأنها روض ناضر مشرق وكيف تبدل الأمر بعد وفاته حيث غدر الزمان به فغدا روض أنسه شاحبا وزهر أيامه ذابلا يقول في هذا الصدد :

---

(1) العطاء الجزيل.

(2) العطاء الجزيل.

لقد كان روضُ الأنسِ لِي بك نَاضرًا فَمَا لِي أَرَاهُ بَعْدَكُمْ غيرَ نَاضِرِ
وكان زَمَانِي قَدْ وَفَى لِي بِوجْهِكُمُ فَيَا قُرْبَ ما أضحى زمانيَ غَادِرِي [1]

ثم انتقل الشاعر بعد ذلك إلى تعداد مناقب إبراهيم وصفاته الحميدة التي كان يتمتع بها، وهي صفات وخصال تدل على أنّ المرثي كان شديد التدين متعلّقا بالله أشد التعلق قواما صواما سالكا سبيل المؤمنين قولا وعملا. يقول في ذلك :

فَمَنْ بَعْدكُمْ لِلْصَّومِ يَهْوى وِصَالَهُ إذا شكت الحِرْبَاءُ حَرَّ الْهَوَاجِرِ
وَمَنْ لِقِيَامِ اَللَّيْلِ يعشقُ طُولَهُ فَيَحْسِبُ أن الفَجْرَ طَلْعَةُ كَاذِبِ [2]

ثم ينادي بعد ذلك أهله وذويه وأقاربه، فيدعوهم إلى التحلّي بالصبر حتى يفوزوا بالأجر الذي وعد الله به عباده المؤمنين، مذكرا إياهم بأن الذي يرد حوض الموت لا يعود ولو كان كبير قومه أو من سراتهم. ويقدم لهم الدليل على ذلك بوفاة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، يقول في هذا الشأن :

أ سَادَتَنَا صَبْرًا تَفُوزُوا بأجره فما وَاردٌ حوضَ المَنُون بِصَادِرِ
وهلْ بعدَ موتِ الْمُصْطَفَى مِن تَجَلُّدٍ ألاَ إِنَّمَا اَلدُّنْيَا سَبِيلٌ لِعَابِرِ [3]

ويختم القصيدة بمخاطبة أقرباء الميت من أبنائه وغيرهم مبرزا شعوره نحوهم مادحا إياهم معترفا لهم بانّ الذي مات وترك بعده ذخائر من العز والسؤدد فكأنه حيّ يرزق، مبرزا بأن الميت وإن كان بدرا قد هوى فقد عوض بأبنائه النجوم الزواهر، وإن كان ياقوتة قد سقطت من عقدها فحسب المنى بقاء ذويه والمنتمين إليه ممن يعدّون بمثابة الجواهر. وأخير يدعو لضريح الميت بالرحمة والرضوان وبالسقيا والامتنان ودخول جنة الرحمان، يقول في ذلك :

وما ماتَ من أنتم لَنَا بعد موته ذخائرُ عِزٍّ دُمتمُ من ذَخَائِرِ
فإن كان بدرٌ منهم في الترب قد هوى فقد عَوَّضُونَا بالنُّجُومِ الزَّوَاهِرِ

---

(1) العطاء الجزيل.

(2) نفسه.

(3) العطاء الجزيل.

وإن سَقَطَتْ ياقوتةٌ من نِظَامِهَا … فحسب المنى فيه بقاءُ الجواهرِ
عَلَيْكَ صَلاَةُ اللَّهِ يَا سَاكِنَ الثَّرَى … وَرُحمَاكَ دَأْبًا إنَّهُ خَيْرُ غَافِرِ [4]

تلك هي أشعار البلوي التي نظمها في الرثاء، وهي تدل على صدق عاطفته ووفائه كما تدل على جودة شعره وحسن سبكه.

* **الشعر الذاتي :**

لا شك أن البلوي قد اعترضته في حياته طوارق وأزمات وأنّه لم يكن كغيره من بني عصره محظوظا لدى الخلفاء الموحدين، فتشاءم من الدنيا وناسها وعبّر عما أصابه بأبيات شعرية كان قد أنشدها لابن سعيد المغربي [1] أثناء إقامته بإشبيلية ؛ ونرجح أن يكون ذلك بعد وفاة إبراهيم الموحدي "المعروف بالأحول" الذي كان حفيًّا به عطوفا عليه. ولا شك أنّ أحوال صاحبنا قد اختلّت بعد ذهابه وفقدانه إياه فغدا يشكو ما أصابه من اكتئاب وحزن لا يجد من يؤنسه في وحشته من البشر أحدا، ولا من يفضي إليه بأسراره سوى كتبه التي كان يحاورها في صمت فتجيبه وإن كانت خرساء، ويشكو لها ألمه فتسري عنه وإن كانت لا تنطق ؛ قال معبرا عن ذلك في هذه الأبيات:

لِمَنْ أشكُو مُصَابِي مِن البَرَايَا … وَلاَ أَلْقَى سِوَى رَجُلٍ مُصَابِ
أُمورٌ لو تَدَبَّرَهَا حَكِيم … لَعَاش مدى الزمان أخَا اكتئابِ
أمَا فِي الدَّهْرِ مَن أُفْضِي إليه … بأسرَارِي فَيُؤْنِس بالجَوابْ
يَئِسْتُ من الأنامِ فمَا جليسٌ … سرى عن الهمومَ سوى كِتابي [3]

ويبدو أن البلوي قد اعترته محن شديدة فخذله أصحابه كما خذله أقرباؤه وذَوِيهِ فغدا يشكو الزمان وأهله. ومن شعره الذي عبر فيه عن ذاته أيضا أبيات قالها في الشيب بعد أن أحس بأنه قد خالط رأسه قبل أوانه، وأن شبابه قد ولّى دون أن يقضي من مرحلته تلك ما كان يجب أن يقضي من تمتع واطمئنان بال، وهو يتأسف على ذلك ويرى أن

---

(4) نفسه.

(1) اختصار القدح المعلّى. ص 120.

(3) اختصار القدح المعلى. ص 120. نفح الطيب ج 3. ص 325.

بعد الحبيب وقرب العدو الحاسد والصديق اللئيم أخفّ عليه من طلوع الشيب بفوديه قبل أجله يقول في هذا الصدد :

لَبُعْدُ حَبِيبٍ إِذَا مَا حَصَلْ وَقَدْ فَنَيْتُ فِي رضاهُ العِلَلْ
وَقُرْبُ عَدوٍّ على فَجأةٍ حَسودٍ حقودٍ كثيرِ الحِيلْ
ولُؤْمُ صديقٍ على غَفْلَةٍ أوَانَ إِلَيْكَ سَعَى وَارْتَحَلْ
فَأَحْوَجَكَ الدهرُ يَوماً له وقد نَفَشَتْ بِمُنَاهُ الدُّوَلْ
أَخَفُّ عَلَى نَاظِرِي طلعةً مِنَ الشَّيْبِ إنْ جَاءَ قبلَ الأجلْ
وَوَلَّى الشبابُ ولم أَقْضِ مِن زيارتهِ ورضاهُ الأَمَلْ
فَطُوبَى بِمَنْ مُتِّعَتْ نَفْسُهُ بِهِ ثُمَّ فِي ذَيْلِهِ قَدْ رَفَلْ (1)

تلك هي أشعار البلوي ؛ ولا شك أنها لم تردنا كاملة، إذ ذكر تلميذه "ابن عبد الملك" أنه كنا سريع القول قوي البديهة ؛ ومن تكن هذه صفاته لا بد أن يكون إنتاجه كثيرا غير أننا نستفيد مما بقي أن شعر البلوي يميل إلى السهولة والبساطة حيث كان لا يتكلف في قوله، وأنه شاعر مطبوع يسير على مذهب الأوائل.

---

(1) اختصار القدح المعلى. ص 121. أعلام المغرب العربي ج 4. ص 149.

نثر البلوي

*** الكتابة والكتّاب في عصر الموحدين :**

آهتم الموحدون بالكتابة والكتّاب خلال فترة حكمهم وجعلوهم في الطبقة العليا من بين الطبقات التي كانت تزخر بها دولتهم ؛ ومن ثم وجدناهم يحظون برعاية خاصة طيلة مدّة الحكم الموحدي. وقد ذكر ابن صاحب الصلاة أن هذه الفئة قد نالت في عهد يعقوب المنصور من الأموال وصلاح الأحوال ما لم تنله في زمان آخر. [1].

ولم يكن خلفاء الموحدين يغدقون المال على هذه الطبقة فحسب بل كانو يشاركون في توجيهها بحكم مركزهم السياسي والفكري وبحكم التعليم المتواصل الذي كان أبناء الخلفاء الموحدين يتلقونه في بلاطهم ؛ ومن ثم وجدنا الخليفة المنصور يشارك في إسداء النصيحة للكتّاب ويدعوهم إلى الإيجاز بدل الإطناب ؛ قال ابن عذاري "ولما وصل المنصور إشبيلية ووصلت معه وفود من سائر بلاده ومنتهى طاعته بالتهاني من النظم والنثر، قال المنصور : الفتح أعظم من الإطناب في وصفه وأمر الكاتب أبا الفضل بن أبي الطاهر وأكد عليه أن يوجز الكَتْب في هذا الفتح غاية الإيجاز ولا يسلك في العبارة عنه مسلك شيء مما تقدم من أوصاف الفتوحات وأن ينحو فيه منحى كتّاب الصحابة (رض)" [2]. ويبدو من خلال النص الذي أورده ابن عذاري أن المنصور كان قد لمح أن الكتّاب يطنبون في وصف الفتوحات فأشار عليهم برأيه في تغيير أسلوب الكتابة وطريقتها ودفعهم إلى الاختصار خاصة إذا تعلق الأمر بالإخبار بفتح وذلك جريا على طريقة الصحابة في كتبهم التي كانوا يبعثون بها إلى ولاة الأقاليم وعمالها.

وقد شارك الخلفاء في الاعتناء بهذه الطبقة الولاة سواء تعلق الأمر بولاة المغرب الأوسط أو الولاة الذين كانوا بالأندلس ؛ فقد ذكرت بعض المصادر أن هؤلاء الولاة

---

(1) المن بالإمامة ص 236.

(2) البيان المغرب (قسم الموحّدين) ص 221.

كانو يستدعون الكتّاب من منطقة إلى أخرى ومن مدينة إلى مدينة وذلك حتى يتمكنوا من إخبار الحضرة العلية بما يجدّ من أحداث سواء على الصعيد السياسي أم العسكري أم الاجتماعي ؛ فقد ذكر ابن صاحب الصلاة في هذا الشأن أن أبا إسحاق المسوفي استدعى الكتّاب والمشارف من إشبيلية للذهاب إلى قرطبة، فنزحت إلى هناك جماعة كبيرة مشهورة من كتّاب إشبيلية وأعيان جهاتها وكان هو من بين أولئك الذين كتبوا غير أنه تخلّى عن منصبه لأسباب لم يذكرها.

* رسائل البلوي الرسمية :

يبدو أن إشبيلية كانت تحظى بعناية خاصة من قبل الموحدين يعود ذلك إلى كونها كانت سابقة للدخول في طاعتهم قبل غيرها من مدن الأندلس، ومن ثم اهتم بها الخلفاء أكثر من غيرهم فكانوا لا يولّون عليها إلا من كان صالحا من أبنائهم أو من يرونهم أهلا للقيام بشؤونها السياسيّة والاجتماعية. وهكذا تعاقب على ولاية إشبيلية مجموعة من السادة الموحدين كان من بين أبو إسحاق إبراهيم الأحول الذي ولاه عليها المستنصر بالله سنة 611هـ [1].

ويذكر البلوي في خاتمة كتابه "العطاء الجزيل" أنه عندما وصل أبو إسحاق السالف الذكر إلى إشبيلية عيّنه كاتبا له وظل في مهمته ثمانية عشر شهرا [2]. وقد صدرت عنه خلال هذه المدة مجموعة هامة من الرسائل والمكاتبات الرسمية التي كان يبعث بها إبراهيم إلى الحضرة الإمامية بمراكش لإخبارها بما يجري بالأندلس.

وقد وصلتنا مجموعة هامة من رسائل البلوي هذه متضمّنة في مصدرين هما "العطاء الجزيل" ومخطوط مبتور الطرفين يجهل اسمه [3]. وسنحاول تخليص مضامين هذه الرّسائل الهامة التي تكشف – لأول مرة – بتفصيل دقيق عما كان يسود الأندلس

---

(1) البيان المغرب. ص : 266. الحلل الموشية. 161. المعجب 236.

(2) العطاء الجزيل.

(3) يوجد المخطوط في خزانة الاستاذ محمد المنوني ؛ وقد سمح لنا بتصويره والاستفادة منه. ولذا فنحن نسجل له شكرنا واعترافنا بالجميل.

والمغرب خلال عهد الخليفة المستنصر من أحوال اجتماعية وسياسية واقتصادية، وسنعتمد في تحليل مضامين هذه الرسائل على المصدرين السالفين مبتدئين برسائل المخطوط الخاص باعتبارها تمثل نسبة كبيرة مما خلّفه البلوي وهي هذه :

الرسالة الأولى : بعد المقدمة التقليدية التي يفتتح بها البلوي رسائله الرسمية يخلص إلى الموضوع مباشرة حيث يخبر الخليفة – على لسان إبراهيم – بأن أحوال إشبيلية وما جاورها من المدن جارية على الصلاح الشامل، وأنّ الأمن يسود البلاد والعباد كما يخبره بأن الناس جميعا قد استبشروا بالإنعام الذي أنعمه الخليفة عليهم فغدوا لزراعة مناطق الثغور وغيرها باذلين في ذلك جهدهم متمنين النجاح في قصدهم. كما يبلغ الحضرة الإمامية ما علمه من أخبار النصارى وأحوالهم فيذكر له أن الناس كانو يتقولون بارتباط صلح بين صاحب "قشتالة" وصاحب "ليون" ثم ورد خبر من مدينة "ماردة" مفاده أن ابن صاحب ليون وابن صاحب "قشتالة" قد اقتتلا فانتصر لكل واحد منهما فريقه فقتل من الجانبين ما يزيد عن "خمسين" رجلا، وقد استبشر المسلمون بهذا الخبر واطمأنت نفوسهم وتهللت وجوههم وغدوا لخليفتهم داعين ولأمانته وعهده راعين.

الرسالة الثانية : في هذه الرسالة يخبر والي إشبيلية أبو إسحاق إبراهيم بأنّ أحوال جهته جارية على الصلاح المستدام والرخاء العام، وأنه استلم كتاب الخليفة الذي يوصيه فيه بتأكيد أسباب الهدنة بين المسلمين والنصارى، ومباشرة أمور الرعايا بإنصاف المظلوم منهم وتأمين الخائف، وأنه قد تلّقى هذا الكتاب وسيعمل على تنفيذ أوامره المطاعة. كما يخبر الوالي المذكور خليفته بأنّ بعض أهل الدّعارة كانوا قد عاثوا في بعض الجهات فسادا فأرسل في طلبهم من يطاردهم في عقر دارهم حتى تهدأ الأحوال ويسود الأمن في البلاد. وقد تم ذلك فعلا فغدا شمل هؤلاء المفسدين مشتتا وانقسموا "بين قتيل ذاهب وطريد هارب ونازل تائب" [1].

---

(1) مخطوط الأستاذ المنوني.

ويبدو من سياق الرسالة كذلك أن الخلافة الموحدية كانت ترغب في شراء منازل بعض الأندلسيين الضعفاء ثم تنازلت عن ذلك، فأصدر الأمر للوالي المقيم بإشبيلية بأن يخبر الرعية بما عزم عليه فأخبرهم. وعندما علم الناس بذلك، استبشروا واطمأنت نفوسهم وغدوا لخليفتهم داعين ولأمره المطاع مسارعين.

الرسالة الثالثة : تتحدد مضامين هذه الرسالة فيما يلي :

1) الإخبار بأن أحوال إشبيلية في صلاح تام وخير عام.

2) إنعام خليفة الموحدين على والي إشبيلية بإضافة مدينة "بطليوس" وثغورها الجوفية إلى نفوذه، وبالتفاوض مع الشيخ أبي عبد الله بن عبد الله بن عبد الرحمان في من سيعينه على تلك الجهات.

3) مطالبة الخليفة للوالي بأخذ الاحتياط على المخازن. ويبدو من سياق الرسالة أن الخليفة الموحدي خلال هذه الحقبة كان يعتني أشد الاعتناء بالأندلس عامة، وبإشبيلية خاصة لمجاورتها للثغور المسيحية، كما يبدوا أيضا أن المراسلات كانت مستمرة بين الوالي المذكور وبين الخليفة.

الرسالة الرابعة : يبدو من مضمون الرسالة أن الخليفة الموحدي كان قد بعث كتابه إلى والي إشبيلية مشتملا على "العلامة" التي هي القطب الذي يحرك فلك المصالح ويديره، فتبرك بهذا الكتاب وأخبر خليفته بأنه لن يدّخر وسعا في تطبيق أوامره. ويبدو من سياقها كذلك أن الخليفة يؤكد على الوالي بأن يرعى السلم مع صاحب قشتالة وأن ينبه الناس في كل الجهات وخاصة الحدود المتاخمة للمسيحيين، وبأن يحفظوا عهودهم ويقفوا عند حدودهم وبذلك تقوم الحجة على النصارى ويعلمون أن المسلمين يوُفون بمواثيقهم وعهودهم.

الرسالة الخامسة : في هذه الرّسالة يخبر والي إشبيلية الحضرة الموحدية بأن أحوال جهته سارة بما توالى عليها من الغيث المدرار، وأن نفوس الرعية في طمأنينة وتمهيد قرار بما منّ الله عليهم من إذعان الأعداء والكفار، كما يقدم شكره للخليفة الذي أنعم على ابنه بتقديمه على مدينة "بطليوس" وسائر.

(يتبع)